الأوضاع السياسية والحضارية في الحجاز

خلال عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور

[١٣٦ هـ/ ٧٥٣ م-١٥٨هـ/ ٧٧٤ م]

-١-

كانت المدينة المنورة بأرض الحجاز العاصمة الأولى للدولة الإسلامية، خلال النصف الأول من القرن الهجري الأول، ثم انتقلت العاصمة إلى الكوفة في عهد الخليفة علي بن أبي طالب (٣٦هـ/ ٦٥٦م ـ ٤٠ هـ/ ٦٦٠م)، وفي عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١ هـ/ ٦٦١م ـ ٦٠ هـ/ ٦٧٩م)، انتقلت الخلافة إلى دمشق وبقيت عاصمة للدولة الأموية لفترة تزيد عن التسعين عاما (٤١ هـ/ ٦٦١ م ـ ١٣٢ هـ/ ٧٤٩م)، كما ظهر من السياسيين من كان يبذل كل ما في وسعه لارجاع عاصمة العالم الإسلامي إلى المدينة في الحجاز، وكان أقوى من تزعم حركة سياسية أوشكت أن تطيح بالدولة الأموية، هو عبدالله بن الزبير الذي حارب جيوش بني أمية وتغلب عليها في عدة معارك، لكن حنكة وسياسة الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ هـ/ ٦٨٤ م ـ ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م) مكنته من القضاء على ثورة ابن الزبير[١].

ولم يستمر طويلا حكم الدولة الأموية، حيث دب الضعف في كيانها، مع ظهور بني العباس الذين استطاعوا ان ينتزعوا الأمر من بني أمية، وأن يكون السفاح أول خليفة عباسي يستمر في الحكم أربع سنوات (١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م ـ ١٣٦ هـ/ ٧٥٣ م)، ثم أعقبه الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦ هـ/ ٧٥٣ م ـ ١٥٨ هـ/ ٧٧٤م) الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة بني العباس التي حكمت مايزيد عن خمسة قرون (١٣٢ هـ/ ٧٥٣ م ـ ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م)، الذي كان له من الآثار السياسية والحضارية في جميع أجزاء الدولة الإسلامية مايجعل العديد من المصادر الاساسية تطيل الحديث عن أعماله، بل وتصفه بالمؤسس الأول لدولة بني العباس، ولما كانت منطقة الحجاز جزءاً مُهِمًّا من أجزاء دولة الخلافة العباسية ، فإنَّ موضوع هذا البحث سوف يكون مركزاً على أوضاع الحجاز السياسية والحضارية في عهد الخليفة المنصور، حيث نناقش ماظهر في الحجاز من ثورات سياسية ضد حكم الخليفة،

وكيف تم القضاء على تلك الثورات، مع التطرق لنتائج تلك الثورات على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، ثم نتعرض لما قدمه الخليفة المنصور من أعمال خيرية تجاه المجتمع الحجازي.

أ ـ الأوضاع السياسية :

في حقيقة الأمر أن أرض الحجاز كانت مهمة لأي خليفة من خلفاء بني أمية في الشام أو بني العباس في العراق، لكي يبسط نفوذه عليها، وتكون ولاية من ولاياته، وذلك لمكانتها وأهميتها الإسلامية، وكونها أراضي مقدسة وبها الحرمان الشريفان. ففي عهد الخليفة السفاح كان من أول أعماله بعد توليه الخلافة أن أرسل عمه داود بن علي ليكون أميرا على أرض الحجاز(٢)، في حين أن الفترة التي ظهرت فيها الدولة العباسية، كان يسكن أرض الحجاز عدد من شخصيات البيت الطالبي، الذين ينتسبون إلى كل من الحسن والحسين أولاد علي بن أبي طالب، وكان مقرهم مدينة الرسول ﷺ وماحولها، ومن أهم تلك الشخصيات الإمام جعفر الصادق، والحسن ابن زيد، وعبدالله بن الحسن الملقب بـ(المحض) وَوَالدِهِ محمد، الملقب بـ(النفس الزكية) وابراهيم وغيرهم عدد كثير(٣). وكان من أخطر الرجال على ظهور الدولة العباسية عبدالله بن الحسن وولداه النفس الزكية وابراهيم، لأنهم من أول وهلة أظهروا عدم رضاهم بأن تكون الخلافة في أبناء عمومتهم من بني العباس، وذاك لاعتقادهم أنهم قد خدعوا أثناء الدعوة السرية لاسقاط الدولة الأموية، في حين أن الدعوة كانت قد أنشئت ببعض أفراد البيت الطالبي، ثم انتقلت إلى البيت العباسي، فبقوا يدعون سرًّا لرجل من آل البيت، دون أن يفصحوا لابناء عمومتهم من الطالبيين في ان الخلافة ستكون في رجل من البيت العباسي، وليس من البيت الطالبي، علما أن العديد من أفراد البيت الطالبي كانوا يظنون أن الخلافة ستكون فيهم، ومن هؤلاء الأفراد عبدالله بن الحسن وولداه(٤)، ولهذا قاموا باعداد العدة والاستعداد للثورة ضد العباسيين، منذ أعلن بنو العباس خلافتهم بزعامة أبي العباس، عبدالله السفاح، وكان عبدالله بن الحسن وولداه، محمد النفس الزكية وابراهيم، هم المتزعمين للثورة المناوئة لبني العباس، إلا أن سياسة السفاح كانت تتسم بالمداهنة والمسالمة خلال مدة خلافته.

فكـان دائما يتصل بالعلـويين في الحجاز، ويطلب منهم الـزيارة في أرض العـراق، إلى جانب أنـه كان يغدق عليهم الأمـوال الطائلة والهدايـا والاقطاعات الـزراعية، حتى استطاع أن يكسب رضاهم، فلم يقـوموا بأي ثورة ضده(٥). لكن هذه السيـاسة التي سلكهـا السفـاح لم تستمر على نفـس المستوى من قبـل الخليفة أبي جعفـر المنصـور، وخصوصا مع عبدالله بن الحسن وولديه، ومن كـان يؤيدهم في الثورة ضد العباسيين، فكان دائما يراقب تحركاتهم خطوة خطـوة، فكلما ذهب إلى الحجاز للحج والعمرة بذل مـا في وسعه لمقـابلتهم والتعـرف على مؤامـراتهم ومخططاتهم ضـده، وفي حـالة عـدم مقـابلته، أو تغيب بعض الشخصيـات التي كـان يخاف منهـا على مواجهتـه، يسعى ويلح في السؤال عنهم، لمعـرفة الأسباب التي منعتهم من مقـابلته، ومن المواقف التي تـذكرهـا المصـادر أنـه حج سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م فلم يـر محمـداً وابراهيم، ولـدا عبـداللـه بن الحسن، فطلب والـدهما وسـألـه عنهما، والح عليـه أن يخبره أين ذهبـا، فأبـدى عبدالله بن الحسن بعض الأعـذار، ملتمسـا لولـديه من الخليفـة عدم غضبـه منهما(٦). وبهذا فإن الأمـر بدأ يتأزم بين الخليفـة المنصور والطـالبيين، الذين أصبحـوا يجهـزون أنفسهم للثورة على الخليفـة الذي بـدأ يمارس أيضـا أنواعـا من المضايقـات عليهم، إلى جانب أنه أوقف العطايا والهبات التـي كانت تصلهـم أثناء خلافة الخليفة السفاح.

ومن أعمال الخليفـة المنصور التي سلكهـا ضـد العلويين، أنـه بـدأ يرسل الأمـراء الأقـوياء الـذين عرف عنهم الحزم والقـوة، ليكـونوا ولاة الحجـاز، ويراقبـوا حركـات العلويين، ويضيقـوا عليهم، ويعاقبـوهم بالسجن والجلـد والتعذيب احيـانا(٧)، إلى جانب ارسال الخدم والجواسيس إلى مكـة والمدينة، ليتجسسوا لصالحه، ويخبروه بكل مايـرون من أعمال العلويين، وكذلك مايقـوم به الولاة الـذين ارسلهم إلى الحجاز من عمل في احكام السيطـرة على المنطقة الحجازية، وقمع الثورات التـي تظهر بها. وكان الخليفة أيضا يرسل الجواسيس على هيئة تجار في الأسـواق أو خدم يقومون بالخدمة فى الحرمين الشريفين، كالتنظيف وسقـاية الحجيج ومـاشابـه هذه الأعمال، مع العلم ان مهمتهم الأساسيـة التجسس ومراقبة أحوال الحجاز لصـالح الخليفة(٨). وبالرغم مما

كان يبذلـه الخليفة من مراقبة العلـويين، فقد نجحت ثورتهم في المدينـة المنورة بقيادة محمـد النفس الـزكيـة في منتصف عـام ١٤٥ هـ/ ٧٦٢م[٩]. وربما كـان سبب ثـورة العلـويين الأسـاسيـة في الحجـاز أنهم رأوا أن الخلافـة قـد سُلبت منهم بصنيع بني العباس، عنـدما نـادوا في باديء الأمر بأن الـدعوة في آل الـرضي من آل البيت، وبعد نجـاحهم في اسقـاط دولـة بنـي أميـة حصروا الخلافـة فى البيت العبـاسي، لهذا بـذل العلويين كل مافي وسعهم للثورة ضد بنـي العباس وكسب مساعدة وولاء الحجازيين الـذين كـانـوا هم أنفسهم يـريدون التخلص مـن الخلافة العبـاسيـة، كما فعلـوا مع عبـدالله بن الـزبير في عهـد الخلافـة الأمويـة، وذلك ربما طمعـا في ارجـاع عاصمـة الخلافـة الإسـلاميــة إلى أرض الحجـاز، كما كـانت في عهـد الــرسـول ﷺ والخلفـاء الراشدين.

وبالرغم من أن العلويين ظهـروا كثائرين في أرض الحجاز ضد ولاة وممثلي الخلافة، إلا أن الخليفـة لم يكن يتسرع في ارسـال جيـش يقضي على ثـورتهم، وإنما انتظـر حتى يرى مـاذا يفعلون، فكان ان قام محمـد النفس الزكية وكتب رسالـة مطولة يذكـر فيها أحقية أولاد علي بن ابي طالب في الخلافة، لمواقف جدهم علي بن أبي طالب في خدمة الإسـلام، ثم لكـــونـه بين أول من آمن بـديـن الإسـلام، ثم استطـرد يعـــدد منـاقب الطالبيين، وعلى العكس يذكر العديد من مثالب العباسيين وأجدادهـم، ثم يطلب في النهاية أن يتنازل الخليفة العباسي عن الخلافة، ويتركها لأهلها أولادهـم العلويين، فرد المنصور على تلك الرسالة برسالة مطـولة أخبر فيها بأن بني العباس الذين استطاعوا ان يقضوا على بني أمية، في حين أن أولاد علي بن أبي طـالب فشلوا في ذالك، ثم عدد أشياء عديدة من مناقب العبـاس عم الرسول ﷺ، وكذلك أولاده، وبهذا فهم الأحق بزعـامة الخلافة الإسلاميـة، ولن يتنازل عن الخلافة كما طلب محمد النفس الـزكية، ثم قام فـاعد العـدة وجهز الجيوش لارسـالها إلى الحجاز، وقمع ثـورة العلويين[١٠]، وقد تـزعم الجيش الـذي أرسل من العـراق ولي عهد الخليفـة المنصـور عيسى بن مـوسى فصار في عـدد أربعة آلاف جنـدى سالكـا طريق الكـوفة إلى الحجـاز، وعند وصـوله استطـاع أن يستميل عدداً مـن رجال محمـد النفس الـزكية، حتـى لم يبق معه إلا قلـة

قليلة، ثم حاربه عدة أيام، حتي قضى عليه بالقتل والقضاء على ثورته قضاء تاما[١١].

ومع ان ثورة محمـد النفس الزكية كانت نهايتهـا الفشل لاسباب قد لايكون مـردها قوة الخليفـة المنصور أو الجيش الذي أرسلـه تحت قيادة عيسى بن مـوسى، لكن يبدو أن سبب الفشل عائد لما قام به محمد النفس الـزكية من ارتجالية فى ثورته، بل ولأسباب أخرى عدة نوردها فيما يلي:

(أ) ظهـرت الثورة في بـلاد الحجاز فبـاءت بالفشل، لما تتصف بـه هذه البـلاد من صعوبـة التضاريس والمواصلات التي تصلهـا بغيرها من العالم، ولضيق وقلـة الغذاء بها، فهي فعلا لم تكن أرضـاً غنية تسد حاجـة سكانها، بل كانت تعتمد على مـا يأتيها من أطـراف العالم الإسـلامي، كبـلاد مصر، والعراق واليمن وغيرهـا، وأكبر دليل على مصداقية قـولنا أنه أثناء سماع الخليفة قيام ثـورة محمد النفس الزكية انه أمـر بالطريق البري والبحـري الذي يصل بـلاد الشام ومصر ببـلاد الحجاز، في أن يقفل فـلا تصل إليهم المعونات والمواد الغذائية التي كانت تأتيهم من تلك الأطراف[١٢].

(ب) أن من يقـارن بين الدقـة في التنظيم والترتيب من قبل الخليفـة المنصـور ومن قبل محمد النفس الـزكية، يجد أن الأخير كان ارتجاليـا في تنظيمه، بل وفي عـلاقته بمن انضـم معه على الرغم من كشـافة جنده حتى ان الطبري يذكر في إحدى روايتـه انه قد اشترك معه في ثورته مايزيد عن مئة ألف رجل من الحجازيين[١٣]، في حين أن عيسى ابن موسى لم يأت بأكثر من أربعة آلاف جنـدي، فسبب فشله إذاً عدم التنظيم وعدم جمع كلمة من انضم معه على رأي واحد، إلى جانب تعدد الآراء في اتخاذ القرار لمقابلة جيش المنصـور، فهناك روايـة تـذكر ان الحجـازيين الـذين انضموا مع محمـد النفس الزكيـة قد اختلفـوا فيما بينهم في الطريقة التي يقـاتلون بها جيش الخليفـة، هل تكون دفاعيـة أو هجوميـة، في حين أن فئة أخرى كـانت لاترى في الحرب فـائدة وطلبوا من محمـد النفس الـزكية أن يخرج مـن المدينة، إمـا إلى البـوادي، أو إلى أرض مصر، حتى يستعدوا استعداداً تامًا، ثم يعودوا لمقابلـة جيش الخليفة، وهذه الاختلافات بين رجال محمد النفس الـزكية مكنت عيسى بن مـوسى مع أربعة آلاف من الجنـد في أن يقضوا على تلك الثورة قضاء مبرماً.

(جـ) لم تكن سياسة محمد النفس الزكية في نفس المستوى الذي كان يتصف به الخليفة أبو جعفر المنصور، ولا حتى قائد جيشه الذي ذهب إلى الحجاز، عيسى بن موسى، فمحمد النفس الزكية كان في مرتبة أقل من الخليفة وقائده لعدم حزمه وضبطه لرجاله الذين قاموا لمساعدته، ثم التسرع في ثورته، بل وفي قراراته، حتى أنه ليذكر انه في أول خطبة خطبها، وكانت حوله اعداد كبيرة من الرجال، قال لهم: من يريد البقاء معي فليبق ومن يريد الذهاب فإن له ذالك ولابيعة لي على من يغادر، وإنما هو في حل[١٥]. فمثل هذا الاعلان في الخطبة قد يقلل من شأنه، وفعلا تركه أعداد كثيرة ممن كان معه، ولم يبق فى آخر أيام الثورة إلا عدد قليل[١٦].

وظهور ثورة محمد النفس الزكية في المدينة بأرض الحجاز كانت لها نتائج سلبية على المجتمع الحجازي، وخصوصاً فيما يتعلق بعلاقة الخليفة المنصور بالحجازيين، حين قيامه بحركة الثورة قام عدد كبير من رجالات بني هاشم ومن القرشيين بوجه عام بمساندة العلويين ضد الخليفة المنصور، وممثليه في أرض الحجاز، إلى جانب ظهور أعداد كثيرة من الموالي والعبيد وجميع القبائل العربية المحيطة بالمدينة، أمثال قبائل مزينة، وجهينة، وبني سليم، وغطفان، فانضمت إلى محمد النفس الزكية لمحاربة المنصور[١٧] ومع أن المصادر قد أشارت إلى كثرة الأعداد التي انضمت للعلويين إلا أننا لانستطيع أن نعثر على رواية تذكر اعدادهم على وجه الدقة، في حين أن الطبري أشار بأنهم قد يتجاوزون المئة ألف نسمة [١٨] في حين انه كان هناك بعض القرشيين والموالي والعبيد المقيمين في أرض الحجاز والمؤيدين للخليفة المنصور، إلا أنهم بدون شك لم يستطيعوا ولم يقدروا على مواجهة الثوار، فهذا كان السبب في ارسال عيسى بن موسى بأربعة آلاف رجل، للتصدي للثوار وهزيمتهم وقتل أغلبهم[١٩].

أيضاً طبقات العلماء ورجال العلم كانوا أكثر تعاطفا مع العلويين، ومن أشهر العلماء في الحجاز عبدالملك بن جريج، وسفيان بن عيينة وإمام دار الهجرة مالك بن أنس، الذين يُرْوى انهم كانوا مؤيدين لمحمد النفس الزكية وثورته، وخصوصا مالك ابن أنس الذي ذكر عنه أن أهل المدينة وماحولها جاءوا إليه يستفتونه في حكم البيعة

التي أعطوها الخليفة المنصور، في حين انهم يرغبون نقضها، فكانت فتواه أنهم اعطوا البيعة على إكراه وأي بيعة على إكراه فهي باطلة، وبهذه الفتوى يذكر انه خرج عدد كثير من أهل الحجاز مع النفس الزكية(٢٠) .

ومع ان اغلبية أهل الحجاز كانت إلى جانب العلويين إلا أن الهزيمة كانت حليف محمد النفس الزكية وأعوانه وذالك، لأسباب سبق ذكر العديد منها(٢١)، ثم ان الخليفة المنصور لم يكن يتورع عند هزيمة العلويين من معاقبة كل من قدم المساعدة لمحمد النفس الزكيةوأهل بيته، فتذكر بعض الروايات انه ارسل إلى واليه على المدينة جعفر ابن سليمان العباسي ليقبض على كل من ساعد العلويين من القرشيين فيضعه في السجن أما من تثبت مساعدته من الموالي فيقطع أيديهم وذالك عقابا لهم على ماعملوا في مناصرتهم العلويين ضد الخلافة(٢٢)، أما القبائل العربية التي كان أغلبها قد انضم إلى العلويين فلم يسلموا أيضاً من العقاب، فيذكر ان المنصور أمر بجمع اربع مئة من أعيان قبائل مزينة وجهينة مع بعض العلويين ثم انزل بهم العقاب الجماعي الذي كان متنوعا فمنهم من سجن ومنهم من ضرب وقتل(٢٣)، ولم يكن عقاب المنصور لمن ثار مع العلويين مقتصرا على الأعيان من القبائل، أو بالتنكيل الجماعي كما فعل مع شيوخ القبائل، بل كان أيضاً يبالغ في إيذاء من يفشي اسرار جواسيسه الذين يرسلهم إلى الحجاز لمراقبة النفس الزكية، وتثبت إدانته، فإنه لايتوانى في انزال العقاب به وأكبر مثال على ذلك مايذكر عن رجل من قبيلة مزينة من أنه أطلع على معرفة بعض جواسيس المنصور الذين يراقبون حركات العلويين، فاوصل هذا الرجل خبرهم إلى محمد النفس الزكية، وأهل بيته، فوصل الخبر إلى المنصور فامر بالقبض على ذلك الرجل، وجلده سبع مئة وقيل تسع مئة سوط جزاء لما فعل من مساعدة للعلويين(٢٤).

أيضاً نجد أن بعض العلماء ورجال الفقه والحديث في أرض الحجاز لم يسلموا من عقاب المنصور، وأكبر دليل على ماحدث هو أن انزل والي الحجاز جعفر بن سليمان العباس العقاب بالإمام مالك، بسبب فتواه التي أعطاها أهل الحجاز، فيذكر انه ضربه سبعين سوطاً ثم خلعت يده من كتفه فبقى معاقا طول حياته(٢٥).

وماقـام به الخليفة المنصـور أو ولاته في الحجاز ضد من سـاعد الثوار ليس بـالأمر الخفي حيث ان الوضع السيـاسي يحتم عليه وعلى ممثليه في الحجاز وغيرهـا ان يحافظوا على كيان الـدولة الناهضـة، ويقمعوا جميع الثورات التي تظهـر ضدهم، سواء كـانوا من قبيلة قريش أم غيرها، وتذكر المصـادر أن الذي أخذ القرار والتنفيذ بضرب الإمام مالك هـو أمير المدينة جعفـر بن سليمان، دون علم الخليفة المنصـور، بل وتذهب إلى أبعـد من ذلك في أن الخليفـة عنـدمـا سمع بما فعل جعفـر لمالك ذهب إلى الحجـاز، وعزل الوالي من الإمـارة، ثم استأذن من الإمام مالك موضحا لـه انه لاعلم له بما فعل جعفر بن سليمان، ولم يكن لـديه علم بما أنزل بـه من عقوبـة، ثم طلب من مالك إذا أراد أن ينزل العقاب بجعفر فلم يكن مـن مالك إلا ان عفا عنه[٢٦]. والسؤال الذي يطرح نفسـه هنا: هل من المعقـول ان يقوم جعفـر بن سليمان بضرب مالك ومعـاقبته دون علم الخليفة المنصـور؟ وللاجابـة على هذا السـؤال فانه من المستبعـد صحة كل مـاقيل، ولايمكن أن يقـدم جعفر بن سليمان على عملـه فيما يتعلق بمالك إلا بإشـارة من الخليفة والأدلة التـي تجعلنا نجزم بأن الخليفة هو صـاحب الكلمة الأولى والأخيرة في ضرب مالك عديدة، ومن أهمها:

(أ) أن ماسطـرت المصادر الأساسية عـن حكنة وسياسة الخليفـة المنصور تشير إلى أنه ذالك الرجل القوي الـذي كان قابضا على زمام أمور الدولـة بيد من حديد، وبهذا فإنـه ليس من السهل ان يتصرف جعفر بن سليمان دون علمـه، وخصوصـا في ضرب إمام دار الهجرة ومؤسس المذهب المالكي، مالك بن انس. وفي حالة القائنا نظرة على سياسة المنصـور تجاه مراقبة أحوال الحجـاز، ومتابعة سير الأمراء الذيـن كان يرسلهم لضبط البلاد لـه نستطيع ان نعرف مدى سيطرتـه على البلاد ومدى مركـزيته في حكم الأجزاء البعيدة عن مركز الخلافة في العراق[٢٧].

(ب) أن جعفـر بن سليمان لم ينـزل العقـاب بـالقـرشيين والموالي الـذين سـانـدوا العلـويين حتى جـاءه الأمـر من المنصـــور في أن ينفـذ أمـر العقـاب عليهم فيسجن القرشيين ويقطـع أيدي الموالي[٢٨]، وهذا الأمر يكفـي دليلاً على أن جعفرًا لم يضرب مالكا إلا بإشارة من الخليفة.

(جـ) ان عزل جعفر بن سليمان من منصبه كأمير للمدينة مقابل ضربه الإمام مالك لم يكن في اعتقادي إلا صوريا، إذ رأيناه يُعطى إمارة الحجاز كاملة في عهد الخليفة المهدي (١٥٨ هـ/ ٧٧٤م-١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م) وتوليته هذا المنصب في عهد المهدي ولد أبي جعفر المنصور لايستبعد ان تكون وصية ينفذها الولد لوالده، مكافأة له على ماقام به من ضرب مالك وغيره من أهل الحجاز[٢٩].

(د) أن من يتابع الفترة الزمنية التي أعطى فيها الإمام مالك فتواه كانت في منتصف عام ١٤٥ هـ/ ٧٦٢م مع أن جعفر بن سليمان لم يعين أميراً على المدينة إلا في ربيع الأول من عام ١٤٦ هـ/ ٧٦٣م، وهذه الفترة الزمنية تكون كافية للخليفة المنصور وجعفر بن سليمان في أن يحيكا الخطة في ضرب مالك[٣٠]، وبالتالي يذهب الخليفة ليستأذن من مالك فيما حل به، ثم يعزل الأمير وبهذا يكون قد ظهر أمام الرأي العام بأنه يحترم ويجل العلماء ويدافع عنهم، هادفا إلى التنصل من اظهار نفسه بالمعتدي على رجال العلم، وبالتالي يكسب رضا الناس في عمله، وذالك بعد الذي قام به من الالتقاء بمالك وطلب العفو منه، بل واخباره بعدم معرفة ماجرى في مسألة ضربه.

وظهرت ثورة في المدينة بعد ثورة محمد النفس الزكية، عرفت في المصادر التاريخية بثورة السودان، وكان ظهورها بعد هزيمة العلويين، وقتل معظمهم، ففي الوقت الذي واصل الخليفة المنصور انتصار جيشه بقيادة عيسى بن موسى، كان قد أمر بارسال أمير يدعى عبدالله بن الربيع[٣١]، ليكون والياً علي المدينة، وحين وصول هذا الأمير إلى مقر الإمارة في المدينة، أطلق العنان لجنوده ليعيثوا في الأسواق والشوارع، وكذلك المزارع فيدمروها، مع العلم ان بعض أعيان وموالي وعبيد المدينة جاءوا إلى الأمير عبدالله بن الربيع، ليشتكوا إليه من جنوده، فلم يسمع لهم، ولم يردع جنوده عما كانوا يقومون به من أعمال تخريبية، مع العلم ان فوضى أولئك الجنود كانت في أماكن متعددة من المدينة، إلاّ أن احتكاكهم كان أقوى بالعاملين من طبقة العبيد في الأسواق والمزارع وغيرها، حيث تم الاعتداء على بعضهم بالقتل، وخصوصاً من كان يمارس التجارة وبعض الحرف اليدوية، فاعتدوا عليهم في سوق المدينة، وقتل بعضهم، وهذا مما أدى إلى تجمع العبيد في المدينة، ثم التصدي لعبدالله بن الربيع ومحاربته وطرده وجنوده[٣٢].

ومن يتقص الأسباب الحقيقية لثورة السودان يجدها متعددة الأسباب، ففي الوقت

الذي ظهرت فيه ثورة العلويين في الحجاز، ضيق المنصور الخناق عليهم مما سبب عدم ارتياح من عامة الناس، خصوصا قتله للثوار وارساله أميراً ليبث الرعب والخراب في البلاد، فيزيد الأحوال سوءاً، وهذه السياسة كافية لأن تظهر ثورة اجتماعية، لكي يتنفس الناس مما حل بهم من مأس، علماً أن هناك من ارجع أسباب ثورة السودان إلى عوامل أخرى، فيذكر طه الحاجري[٣٣] أن الهدف من قيامهم بثورة في المدينة على اعقاب ثورة محمد النفس الزكية، هو شعورهم بالقوة، ولذا فانهم كانوا يهدفون إلى الحصول على سيطرة سياسية إدارية في أرض الحجاز تمكنهم من حصولهم على مكانة جيدة في المجتمع، وأنا لا اتفق مع الأستاذ الحاجري فيما قال، وإنما شدة المنصور وسوء تصرف الأمير عبدالله بن الربيع والحجازيين كانا السبب الرئيسي لأن تقوم ثورة ضد الظلم والخراب والدمار، الذي فعله جنود ابن الربيع، ايضاً لا استبعد ان يكون للعامل الاقتصادي اثر في قيام الثورة، وذالك يتضح مما قام به السودان اثناء ثورتهم وتصديهم لعبدالله بن الربيع وجنوده، في أنهم في باديء الأمر لاحقوهم في أماكن متعددة من المدينة، ثم رجعوا إلى مخازن الحبوب والأطعمة الخاصة بالخليفة ورجاله في المدينة فنهبوها جميعها، وهذا التصرف يوحي لنا بأنهم كانوا في حاجة ماسة إلى تحسين أوضاعهم الاقتصادية، وربما إلى سد رمقهم، والحاجة التي لحقت بهم[٣٤]، كذالك من المحتمل ان يكون لأعيان المدينة وسادة العبيد يد في قيام ثورة السودان ضد عبدالله بن الربيع وجنوده، فربما انهم قد أيدوهم وشجعوهم للتصد ي لرجال الخليفة المنصور الذي قتل العلويين، وعاقب من ساندهم في ثورتهم، وهذا الاحتما ل يكون قو يا إذا مارأينا ماقاله السودان لأسيادهم عندما قاموا بالثورة إذ يذكر الطبري انهم قالوا: (والله ماقمنا إلا أنفة لكم مما عمل بكم فايدينا مع ايديكم وأمرنا إليكم)[٣٥] وهذا القول فعلاً يدل على أن العبيد قد ثاروا برضا أسيادهم، كذالك انهم لم يكونوا يتطلعون إلى الحصول على زعامة أو نفوذ سياسي كما ذكر الاستاذ الحاجري، أيضاً في رواية أخرى ذكرها الطبري في انهم قالوا صراحة إنما ثاروا وهم فعلاً لايتطلعون إلى أي نفوذ سياسي، فإن نجحت ثورتهم فإن الأمر يترك شورى في ان يعقد مجلس مكون من (أربعة من بني هاشم، وأربعة من قريش، وأربعة من الأنصار، وأربعة من الموالي، ثم الأمر شورى بينهم)[٣٦] في أن يختاروا من هو أصلح للخلافة

وقيادة زعـامة الأمة الإسلاميـة، وهذا القول أيضاً يخالف رأي الحاجـري، وكيف يقدر العبيد أن يحصلـوا على زعامـة سياسيـة في بلاد الحجـاز، في حين أن العلويين ومعهم غالبيـة الحجازيين لم يحققـوا هدفهم، وإنما ثورتهم اصبحت هبـاء منثوراً أمـام حكنة وصمود الخليفة المنصور.

(للبحث صلة)

ابها : د. غيثان بن علي بن جريس
رئيس قسم التاريخ ـ كلية التربية ـ فرع أبها

الحواشـي :

(١) انظر، شمس الدين ابو العباس أحمد بن خلكـان. «وفيات الاعيان»، تحقيق احسان عباس (بيروت : ١٩٦٨م) جـ ٣، ص ٧١، السيـد عبـدالعـزيـز سـالم. «تاريخ الدولة العربية» الاسكندرية: ١٩٨٤م، ص ٧١ ومابعدها، عبدالامير دكسن «الخلافة الأموية» ٦٥ ـ ٨٦/ ٦٨٤ / ٧٠٥ م(بيروت : ١٩٧٣م) ص٩٩ ومابعدها .

(٢) انظر ترجمة لداود بن علي في كتاب خير الدين الزركلي. «الاعلام»، طـ ٥ (بيروت : ١٩٨٠) جـ ٢، ص ٣٣٣.

(٣) أبو الفرج علي الاصفهاني. «مقاتل الطالبيين»، تحقيق السيد أحمد صقر (بيروت: تاريخ النشر بدون) ص ١٧٩ .

(٤) انظر تفصيل عن الدعـوة السرية التي كان بنو العباس يسعـون من خلالها لاسقاط دولة بني امية. أبـو جعفر محمد بن جـرير الطبري. «تـاريخ الرسل والملـوك». تحقيق محمد أبـو الفضل ابراهيم (القـاهرة: ١٩٦٠م) جـ ٧، ص ٤١٢ ومابعدها، أحمد شلبي. «التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية»، طـ ٤ (القاهرة: ١٩٧٠م) جـ ٢٣/ ١٩.

(٥) انظر حـول سياسـة السفاح مع العلـويين، أحمد بن يحيى البـلاذري. «أنسـاب الاشراف»، تحقيق محمـد المحمودي (بيروت: ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧م)، جـ٣ ص ٢٣٢، أحمد بـن محمد بن عبد ربه. «العقد الفـريد»، تحقيق أحمد أمين وآخرين (القـاهرة: ١٩٦٧م) جـ٥، ص ٧٤، فاروق عمـر «الرسـائل المتبـادلة بين المنصور ومحمد النفس الـزكية» مجلة العرب، (١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠م) جـ ١ .

(٦) الطبري «تاريخ» جـ ٧ ، ص ٥٢٢، البلاذري، «انساب»، جـ ٣، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٧) ارسل الخليفة المنصـور عدداً من الأمراء إلى كل مـن مكة والمدينة ليضبطـوا له الأمن في بلاد الحجـاز، ويقضوا على ثورة العلويين التي تزعمهـا محمد بن عبدالله بن الحسن، علماً ان أولئك الأمراء كانـوا غير متساويين في سياساتهم وتنفيذهم أوامر الخليفة، وبعضهم اتصف بالحزم والقوة، كـزياد بن عبيد الله الحارثي، والحسن بن زيد، ومحمد بن خالد القسري، إلا انهم كانـوا متعاطفين مع العلويين لقرابتهم من الرسول ﷺ، لـذا فلم يشددوا القبضة عليهم، وإنما كانوا متسـاهلين معهم فلم يكن يسع الخليفة إلاّ أن يعزلهم ثم يعاقبهم بـالسجن ومصادرة أموالهم، في حين انه كـان هناك أيضاً ولاة اخرون امتـازوا بالشدة والقسـوة، خصوصا على العلويين والحجـازيين بشكل عام، ومن أمثال اولئك الأمـراء عثمان بن رباح المري، وعبدالله بن الـربيع. انظر تفصيلات اكثر، البـلاذري، «انساب»، جـ ٣، ٨٥ ـ ٨٦، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥١٧ ومـابعدها، ابو عبدالله الـزبير بن بكار، «اخبار الموفقيات»، تحقيق سـامي العاني (بغـداد : ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢م)، ص ٣٦٨، اسماعيـل ابن على بن كثير، «البدايـة والنهايـة» (بيروت والرياض: ١٩٦٦م) جـ ١، ص ٢٦٢.

(٨) البلاذري، «انساب» ٣/ ٨٥ ـ ٨٦، الطبري، «تاريخ» ٧/ ٥١٩، ابن كثير«البداية والنهاية»، ١/ ٨٤.

(٩) انظر تفصيـلات عن الثورة العلويـة التي قامت في المدينـة ضد دولة بني العبـاس في عهد الخليفة جعفـر المنصور. الطبري «تـاريخ»،٧/ ٥٥٢ ـ ٦٠٩، مـؤلف مجهول، «العيـون والحدائق»، تحقيق ام. دي غوي (ليـدن، ١٨٦٩م) ٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥١، علي بن الحسين المسعـودي. «مروج الـذهب ومعـادن الجوهـر»، تحقيـق شـاربيـلا (بيروت : ١٩٦٦م) ص ١٤٥.

j. Lassner. The Shapping of the Abbasid Rule (Princeton 1980) PP. 70-2; F. Omar. "Some Aspects of the Abbasid-Husaynid Relation During the Early Abbasid Period 132-193 A. H/750-809 A.D" Arabica, Vol. XXII (1975) PP. 170ff.

(١٠) انظر للرسائل التي تبادلها الخليفة أبو الجعفر المنصور مع محمد النفس الزكية، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٦٦ ـ ٥٧١، فاروق عمر «السائل المتبادلة»، ص ٢٠ ومابعدها.

(١١) انظر نفس المصادر والصفحات التي ذكرت في حاشية (٩)

(١٢) أبو عبدالله الزبير بن بكار، «أخبار الموفقيات»، ص ٣٣٩، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٧٨، ٦٠٣، حمد الجاسر، «في شمال غرب الجزيرة»، نصوص، مشاهدات، انطباعات (الرياض: ١٣٩٠ هـ/ ١٩٩٧٠م) ص ٢٠٩.

(١٣) انظر الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٨٢.

(١٤) انظر تفصيلات حول تلك الاختلافات في الرأي، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣، ٥٨٠ ـ ٥٨٢، ٥٨٦ ومابعدها.

(١٥) و (١٦) الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨، ٥٧٩، ٥٨٧ ـ ٥٨٩، ابن بكار، «أخبار الموفقيات»، ص ١٨٦.

(١٨) و (١٩) الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٨٢.

(٢٠) أشارت بعض المصادر إلى الفتوى التي أفتى بها الإمام مالك لأهل الحجاز على ترك بيعة الخليفة المنصور والانضمام إلى العلويين. الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٦٠، مؤلف مجهول، «العيون والحدائق»، جـ ٣، ص ٢٩٨، ابن كثير، «البداية والنهاية»، جـ ١٠، ص ٨٤، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي. «تاريخ الخلفاء»، تحقيق محي الدين عبدالحميد (القاهرة: ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م) ص ٢٦١.

(٢١) انظر في الصفحات السابقة من البحث نفسه.

(٢٢) ابن بكار، «اخبار الموفقيات»، ص ١٨٦، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٧٩.

(٢٣) الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٥٠، ٥٩٠.

(٢٤) البلاذري، «انساب الاشراف»، جـ ٣، ص ٨٨ ومابعدها، مؤلف مجهول، «العيون والحدائق»، جـ ٣، ص ٢٣٥.

(٢٥) أبو عبدالله محمد بن مسلم بن قتيبة. «الإمامة والسياسة»، تحقيق طه الزيني (بيروت: ١٣٧٨ هـ/ ١٩٦٧م) جـ ٢، ص ١٤٨، المؤلف نفسه. المعارف، تحقيق ثروت عكاشه (القاهرة: ١٩٦٠م) ص ٤٩٩، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٦٠، مؤلف مجهول، «العيون والحدائق»، ص ٢٩٨.

(٢٦) انظر نفس المصادر والصفحات التي في تعليق (٢٠)، (٢٥).

(٢٧) من الأمراء الذين ارسلهم الخليفة المنصور إلى الحجاز، زياد بن عبيد الله الحارثي، والحسن بن زيد، ومحمد بن خالد القسري، وعثمان بن رياح المري، وعبدالله بن الربيع.

(٢٨) ابن بكار، «أخبار الموفقيات» ص ١٨٦.

(٢٩) لقد ترك الخليفة أبو جعفر المنصور لولده المهدي دولة مترامية الأطراف، خالية من الفوضى والاضطرابات الداخلية، إلى جانب انه ترك له خزانة وافرة بالمال، علما انه صادر أموالاً كثيرة من العلويين وغيرهم من الثوار في بلاد الحجاز، إلاّ انه عندما حضرته الوفاة كان قد ترك بعض النصائح لولده، كأن يحسن إلى بعض من أساء لهم ـ الخليفة المنصور ـ وخصوصا من القرشيين فيدفع لهم الهدايا والأعطيات، بل ويوليهم المناصب الادارية، فكان جعفر بن سليمان ضمن من انطبقت عليه نصائح الخليفة المنصور.

(٣٠) الطبري، «تاريخ» جـ ٧، ص ٥٥٦، ٦٥٦، ابن كثير، «البداية والنهاية»، جـ ١٠، ص ٨٤.

(٣١) لقد أشار الطبري إلى أعمال عبدالله بن الربيع كأمير في بلاد الحجاز خلال عهد الخليفة المنصور، «تاريخ الرسل والملوك»، جـ ٧، ص ٦١٠ ومابعدها.

(٣٢) أحمد بن يعقوب اليعقوبي. «تاريخ اليعقوبي»، تحقيق أم. هوتسما (ليدن: ١٨٨٣م) جـ ٢، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٦١٠ ـ ٦١٤، عز الدين أبو الحسن ابن الاثير. «الكامل في التاريخ»، تحقيق س. تورنبرق (بيروت ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥م) جـ ٥، ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧.

(٣٣) طه الحاجري. «الجاحظ، حياته وتراثه» (القاهرة: ١٩٦٩م) جـ ٢، ص ٢٤٣.

(٣٤) و (٣٥) و (٣٦) الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٦١١، ٦١٢.